النظرة

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

وجدت نفسي خاليا لبعض الوقت خلال رحلتي القصيرة إلى إحدى الدول، ففكرت في أن أكتب لك هذه الرسالة .. وهي رابع أو خامس مرة أهم فيها بالكتابة إليك وتشغلني الشواغل فأعدل عن التنفيذ .. وحين يخلي الإنسان بنفسه بعيداً عن وطنه وأهله قد يجد الوقت للتفكير في حياته .. لقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، وأنا أعبد الله وأجتهد في طاعته والالتزام بأوامره ونواهيه، وأنتم أيها الأدباء والكتاب تقولون لنا إن غاية الحياة المثلى بعد عبادة الله سبحانه وتعالى هي السعادة، أي أن يسعد الإنسان نفسه وأعزاءه ومن هم حوله ويحيا حياة فاضلة .. وأريدك أن تشاركني التفكير في حياتي .. والحكم عليها .. فأنا رجل في السابعة والأربعين من العمر، بدأت حياتي العملية منذ ٢٦ عاماً حين تخرجت في كلية .. وسعى أبي لتعييني في نفس الهيئة الحكومية التي يعمل بها .. قبلت بوظيفة مؤقتة بعقد .. وسعدت بأول مرتب تسلمته في حياتي .. واشتريت منه لأبي وأمي وأختي الأوسط وأختي الصغرى .. هدايا صغيرة سعدوا بها كثيراً وسعدت بسعادتهم أكثر، وبعد عام من عملي بهذه الهيئة عينت بها رسمياً وزاد مرتبي عشرة جنيهات ثملت من النشوة والفرح بها، وقررت أن تكون هذه الزيادة هي هديتي لأختي وأخي فقسمتها بينهما، وأصبح كل منهما يتقاضى مني ستة جنيهات أول الشهر كمصروف له بجانب مصروفه من والدنا وهو عشرة جنيهات، كما خصصت لأمي من مرتبي عشرة جنيهات بالرغم من اعتراضها الشديد ومطالبتها لي بادخار كل ما أستطيع ادخاره من مرتبي لكي أبني حياتي .. واستطيع الزواج بعد سنوات .. وشعرت بنفسي وبدوري في حياة أسرتي وأنا أفعل ذلك .. وبعد أسابيع قليلة من تحملي لهذه المساهمة الشهرية أتيحت لي فرصة عمل إضافي في أحد المكاتب المهنية لأربعة أيام في الأسبوع فتحمست لها وعملت فيه بإخلاص وجاء أول الشهر وترقبت المكافأة التي سيعطيها لي صاحب المكتب، فإذا به يعطيني ثلاثين جنيهاً كاملة عوضت كل ما أعطيه لأسرتي وزدني عنه بعشرة جنيهات وواصلت العمل في وظيفتي الحكومية وعملي الإضافي وخلال ثلاثة أعوام كنت قد أدخرت من مرتبي ومكافآت عملي الإضافي بضع مئات من الجنيهات .. وأصبح صاحب المكتب الذي أعتبره أستاذي يعتمد على اعتماداً كلياً في إدارة أعماله .. وازدادت خبرتي المهنية وبدأت أفكر في تجربة حظي في عمل خاص بي .. ففوجئت بأستاذي يعرض علي أن أشاركه بنسبة الثلث في إحدى العمليات الصغيرة على أن أتحمل مسئوليتها الكاملة وحدي! وكأنما قد قرأ أفكاري فتحمست للفكرة، وحصلت على أجازة بدون مرتب لمدة ٦ أشهر وتفرغت لهذه العملية تماماً وأقمت في خيمة بموقعها البعيد .. لا وسائل فيها للراحة .. وسلمتها في الموعد المحدد، ووجدت بين يدي بضعة آلاف من الجنيهات ..

وكنت قد تجاوزت الخامسة والعشرين .. ولم أعرف فتاة من قبل ولم ارتبط بأية علاقة عاطفية سوى بالنظرات وتبادل التحيات مع الفتاة الصغيرة الطيبة التي تزور أختي من حين لآخر وتبدي اهتمامها بي .. فوجدت نفسي أفكر فيها لأول مرة .. وسألت أختي عنها .. فشجعتني على الارتباط بها وأثنت على أخلاقها كثيراً، وفاتت لي أكثر من ذلك إنها مهتمة بي منذ فترة طويلة، وتحبني في صمت! وطربت لذلك واستشرت أمي فرحبت بالفتاة وأشادت بخلقها ونشأتها المتدينة وأبوها الطيبين اللذين يعملان بالتعليم .. وخلال شهور كنت قد استطعت الحصول على شقة من غرفتين وصالة في نفس الحي، وتزوجنا، واستقرت حياتي من الناحية العاطفية .. ولاحظت بسعادة فرحة زوجتي الشابة بي .. وبالرفاهية النسبية التي وجدتها في الحياة معي بالمقارنة بحياتها البسيطة في أسرتها، وكنت أبتهج كثيراً بفرحتها حين أدعوها للعشاء في فندق كبير والاحظ بسرور خفي ارتباكها وإحساسها بالفخر لوجودها في مكان من هذا النوع .. وأطرب لشكرها لي على هذا «العز» كما كانت تقول وكلما لمست ابتهاجها بمثل ذلك تضاعفت في إسعادها .. وادخال السرور إلى قلبها .. وشكرت ربي على توفيقي في عملي وفي حياتي الخاصة، وحين أنجبنا مولودنا الأول اكتملت سعادتنا .. ولم تخف زوجتي فخرها أمام عائلتها برعايتي لها وإصراري على أن تلد في مستشفى استثماري كبير .. وكانت الفرحة تملأ وجهها وهي تنتقدني على «إسرافي» والمبلغ الكبير الذي حصل عليه المستشفى .. وتتباهى «بالشكوى من ذلك لأبيها وأمها» .. وأطرد نجاحي في عملي واستقلت من الهيئة الحكومية لأتفرغ له، وأصبحت شريكاً بالنصف في المكتب المهني وتحملت معظم العمل فيه وتنقلت بين المواقع المختلفة في الشمال والجنوب والشرق والغرب .. وتحسنت أحوالي المادية كثيراً .. فانتقلت من شقتي الصغيرة في الحي الذي نشأت فيه إلى شقة ٢٥٠ مترا في مدينة نصر .. وأنجبت بعد مولودي الأول بنتين .. وأحيل أبي إلى المعاش فألحقته بالعمل معي في حساباته المكتب، وتزوجت أختي الصغيرة وتكفلت بكل نفقات زواجها وتزوج شقيقي الأوسط بمساعدتي كذلك

وسافر إلى إحدى الدول العربية .. وضاق مسكن أبي وأمي بالأبناء وزوجاتهم والأحفاد حين يجتمعون فيه، فنقلتهما إلى شقة جميلة وواسعة في نفس الشارع الذي أقيم فيه وأصبحنا نجتمع فيها يوم الجمعة كل أسبوع حين أكون في القاهرة، وتواصل نجاحي واتساع أعمالي عاماً بعد عام .. ورحل أستاذي عن الحياة برحمه الله وطلبت مني أرملته أن أشتري نصيبه في المكتب لعدم وجود من يحل محله فيه من أبنائه فاشتريته بزيادة عن أعلى عرض تلقته هي ٢٠٪ اعترافاً بفضل الرجل علي ومساعدته لي في بداية حياتي .. واتسع مجال العمل أمامي بلا حدود، فبدلت مسكني للمرة الثالثة .. وانتقلت إلى شقة مساحتها ٤٠٠ متر في أرقى الأحياء، وبدلت لزوجتي سيارتها بأحدث الموديلات .. ونقلت أبنائي إلى أحسن المدارس وأغلاها واشتريت شقة في الساحل الشمالي .. وأخرى في الغردقة .. ورضيت عن نفسي وعن نجاحي وكل شيء فيما عدا شيئاً واحداً فقط هو حياتي الخاصة!

فمنذ أن استقللت بالعمل في المكتب قبل سبع سنوات وازداد حجم عملي .. وعرفت حياتي العائلية الثراء والوفرة بدأ الفتور يتسرب إلى نفس زوجتي .. وبدأ الجفاء والصمت والتحفظ يسود علاقتها بي كما بدأت الخط عليها يعدها النفسي عني وفتور حماسها لكل الأشياء، وعدم رضاها الدائم مهما قدمت لها ومهما فعلت، وعدم تقديرها لأي عطاء أقدمه لها أو لأبنائها، أو تلبيت .. وانتقاصها المستمر لكل عطاء .. وخيبة أملها المستمرة لأن كل ما أفعله يجيء أقل مما كانت تتوقعه .. أو مما استطيع أن أفعله .. وبعد أن كانت تفرح بأبسط الأشياء وتشكرني بحرارة عليها .. أصبحت إذا قدمت لها مثلا في عيد ميلادها حلية ماسية ببضعة آلاف لا تجود علي إلا بكلمة شكر مقتضبة .. وقد تخونها حتى الابتسامة المتكلفة في هذه المناسبة، فتظل على تجهمها وفتورها .. وكأن ما فعلت كان واجباً علي ولا شكر على واجب! وإذا دعوتها للسفر مع الأبناء في إجازة استجابت بغير حماس وكأنها تتفضل علي بقبول الدعوة! وإذا اشتريت لها خلال سفري للخارج حقيبة كاملة من الملابس والمشتريات .. استثارت اهتمامها بعض الوقت ثم رجعت إلى جمودها من جديد وليس بعيداً أن تلومني بعد قليل على نسيان شيء كانت قد طلبته أو كانت تتوقعه مني ولم أحضره! فهناك دائماً شيء ناقص في كل ما أفعله أو أقدمه لها أو لأسرتي وأبنائي .. وهناك دائماً من يفعل أكثر مما أفعل، ويقدم لزوجته وأبنائه أكثر مما أقدم، ومن يحسن معاملة الزوجة أحسن مما أفعل! وعلي دائماً أن أشقى وأكد .. وأجتهد لكي أتطلع إلى بلوغ هذا «المثل الأعلى» للزوج الذي لا أبلغه أبداً! فإذا سألتني وهل بلغت هي في المقابل المثل الأعلى للزوجة؟ قلت لك إنها كانت كذلك خلال حياتها البسيطة السابقة، فهي طيبة ومتدينة وحريصة على علاقاتي العائلية وخاصة مع أمي بعد رحيل أبي برحمه الله وأختي وهي مازالت صديقتها الوحيدة حتى الآن وأخي، أما الآن فلم أعد أجد منها سوى محافظتها على علاقتها الطيبة بأهلي .. وفروضها الدينية .. والفتور العام تجاه كل ما يتعلق بي .. والاستعداد الدائم للومي وانتقاصي واتهامي بإساءة معاملتها وإشعاري المستمر بالتقصير في حقها وحق الأبناء وحق الجميع بلا استثناء .. فإذا كانت تأخذ على انهماكي في العمل .. فإن هذا الانهماك نفسه هو الذي صنع لها هذه الحياة المرفهة التي تعيشها الآن .. ومهما بلغت من انشغالي بالعمل، فإني أرجع إلى زوجتي وأبنائي في نهاية اليوم وأهتم بأمرهم وأتابع شئونهم .. وأقضي كل العطلات معهم .. وأصطحبهم للسفر من حين لآخر في أجازة قصيرة إلى الشواطئ والمشاتي .. وأتصل بهم بالتليفون عدة مرات كل يوم من أي مكان .. كما أنني فوق كل ذلك رجل ملتزم من الناحية الأخلاقية، وكم صعدت من قبل ومازلت .. أمام الإغراءات النسائية والمغريات .. ولست كغيري ممن يقبلون بالعبث أو يبحثون عن المغامرة .. أو يغريهم تحسن أحوالهم المادية بممارسة لعبة الزواج والطلاق أكثر من مرة كما يفعل آخرون .. فماذا أستطيع أن أفعل لكي أنال رضا زوجتي «السامي» عني؟ وأعيش حياة خالية من الكدر والمنغصات؟ إنها ليست بلهاء وتعرف جيداً أنني قد أكون هدفاً سهلاً لغيرها من النساء وأن إمكاناتي تسمح لي بالتجربة وتحمل النتائج .. لكن هذا ليس طريقي في الحياة، وقد وعيت جيداً درس العبث ومغامرات الزواج والطلاق التي تورط فيها بعض الناجحين من قبل فجرتهم للهلاك والفشل، كما أنني مشغول عن البحث عن مغامرة عاطفية بما هو أهم منه من مشاكل الحياة فكيف بالله عليك لا تعيشني زوجتي على الاكتفاء بها؟ علما بأنها ستنهار انهياراً تاماً إذا طلقتها أو إذا تزوجت عليها؟ وستعود إلى حياتها البسيطة السابقة .. ومهما كنت كريماً معها بعد الانفصال فلن تجد ما تجده معي الآن من رفاهية .. وحياة سهلة فلماذا تدفعني دفعاً إلى الانفصال عنها بعد أن شارف الأبناء سن الشباب؟ إنني أستطيع أن أطلقها بسهولة وأتحمل كل الالتزامات المادية، وأستطيع أن أجد من ترحب بي وتعتبرني هذا المثل الأعلى للزوج الذي تشعرني زوجتي ببعدي عنه بعد السماء عن الأرض، لكني لن أفعل ذلك إلا إذا فقدت كل أمل في الإصلاح لأنني أفضل الحياة العائلية الهادئة وأكره أن يعرف عني الطلاق والزواج أكثر من مرة وزوجتي لا تقدر لي حتى هذا التمسك بها بالرغم مما أشعر به من تعاسة شديدة معها طوال السنوات الأخيرة، حيث كثرت خلالها مصادماتنا الصامتة .. أو الصارخة وخصامنا .. وتكبرها على الاعتذار عن الخطأ أو التحرش بي .. وهي تسألني متهمة في كثير من الأحيان: أين ذهبت الفتاة الطيبة التي أحببتها من أعماق قلبي سنوات طويلة بعد الزواج وكانت تسعد بأبسط الأشياء، وتفرح بها .. وتحمد الله كل لحظة على ارتباطها بي .. وما معنى النجاح والثراء إذا شعر الإنسان بالتعاسة والوحدة النفسية والعاطفية على الدوام في حياته الخاصة؟ وهل لديك حل .. أو تفسير؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قد يكون لدى تفسير أو ما يشبه التفسير لبعض ما تشكو منه، ذلك أن قليلين من البشر هم الذين لا يحققون عن شكر ربهم على نعمه الجليلة عليهم .. ويستكثرونها على أنفسهم فيدفعهم ذلك إلى استحقاقها .. وتقديرها حق قدرها والاستئثار لحالهم عليها، وهؤلاء يجدون دائماً أنه من كمال مضمون الحديث الشريف الذي يقول من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

فإن لم يتسلح المرء بهذا الاستعداد النفسي لشكر خالقه كل يوم وكل لحظة، على نعمه الجليلة أيا كان نصيبه منها فقد حماسه للأشياء .. وصغر في عينيه ما يبدو للآخرين عظيماً، وتطلع إلى المزيد بدلا من استثمار الموجود .. واتهم الحياة بالتقصير في حقه بدلا من الاعتراف لها بالسخاء عليه.

ولست أستطيع أن أحكم على الأسباب الحقيقية لفتور روح زوجتك وفقدها حماسها القديم للأشياء إلا في إطار بعض القواسم المشتركة بين البشر .. ومنها أن يتعامل بعض شركاء الحياة مع الطرف الآخر بمنطق معلم المدرسة الذي يتوقع من تلميذه دائماً «نتيجة» أفضل مما حققه مهما اجتهد التلميذ أو تفانى في الكد والاجتهاد .. وبدلا من تهنئته بما يعتبره هو اجتهاداً يتطلع إلى تقديره والثناء عليه، يفاجأ بمن يشعره بخيبة أمله فيه، وتوقعه لما هو أفضل مما فعل .. ولقد يضن عليه بكلمة التشجيع والثناء اعتقاداً منه أن في الابتهاج بما حقق قد يضعف همته، ويقعده عن مواصلة «الاجتهاد» .. وهو اعتقاد خاطيء بكل تأكيد، لأن بخس الناس أقدارهم خاصة من جانب شركاء الحياة لبعضهم البعض، لا يدفعهم للاجتهاد للوصول إلى الغايات القصوى للأشياء أو لبلوغ المثل الأعلى المزعوم بممارسة لعبة الزواج والطلاق أكثر من مرة كما يفعل آخرون .. فماذا أستطيع أن أفعل لكي أنال رضا زوجتي «السامي» عني؟ وأعيش حياة خالية من الكدر والمنغصات؟ إنها ليست بلهاء وتعرف جيداً أنني قد أكون هدفاً سهلاً لغيرها من النساء وأن إمكاناتي تسمح لي بالتجربة وتحمل النتائج .. لكن هذا ليس طريقي في الحياة، وقد وعيت جيداً درس العبث ومغامرات الزواج

اعتيادها الحياة الناعمة على نفس انبهارها القديم بالأشياء عند ممارستها لها للمرة الأولى في حياتها، ذلك أن أفة كل شيء هي اعتياده واعتباره بعد حين من مألوف الحياة، لكن ذلك لا يحجب عن أعين أصحاب النفوس الشاكرة حقائق النعم التي يرفلون فيها .. ولا يمنعهم من تقديرها حق قدرها .. وشكر خالقهم عليها وأجلها بكل تأكيد بالنسبة لزوجتك الآن نعمة الأبناء وسلامتهم ونجابتهم والحياة العائلية المستقرة، والصحة والزوج المخلص لزوجته برغم المغريات والتمسك بها بالرغم من شكواه والحياة الكريمة والإمكانات السخية .. ولابد لها أن تعرف أن «فشل الروح» من أخطر ما يهدد سعادة الإنسان، وهو الحال التي يفقد فيها الإنسان قدرته على الاستمتاع بالقدر المتاح له من السعادة والأشياء الجليلة والجميلة المحيطة به ..

لأنه كما يقول الشاعر العربي:

من بك ذا فم مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

ولهذا فإن واجبها تجاه نفسها قبل أن يكون تجاه زوجها وأبنائها أن تتوقف لكي تعيد النظر إلى حياتها وتسعد بها وترضى عنها وتستعين على ذلك باسترجاع علامات الطريق التي قطعته مع زوجها منذ البداية لكي تحسن تقدير «الإنجاز» الذي حققته معك وترضى عنه ولا تغفل عن شكر خالقها عليه .. وتبذل كل الجهد لبعث الحرارة في نفسها وبالتالي في علاقتها بزوجها .. وتعديل سلوكها معه .. واستعادة حماسها للأشياء والحرص على شريك الحياة .. والتجاوب العاطفي معه .. وحمايته من الإغراءات المحيطة .. وتحصينه ضدها .. والتفكر في الأخطار المتوقعة إذا ظلت سادرة في فتورها وتحفظها وجمودها وتكبرها غير المبرر وفي تعاملها مع زوجها وكأنه واقع غير قابل للتحول أو الانصراف عنها إذا تملكه اليأس منها، لأن كل شيء قابل للتغير إلا قانون التغير كما قال الفيلسوف الإغريقي في الزمن القديم .. ومن حسن الفطن ألا يتمادى المرء في الاعتماد على الثقة العمياء في عدم قدرة الآخرين على التخلص منه إذا هو تمادى في الضغط عليهم .. والإساءة إلى مشاعرهم .. وإحباطهم إذ لا ينفع الندم بعد وقوع الكوارث ولا تجدي محاولات الإصلاح بعد فوات الأوان.

أما أنت فإني أحيي فيك استقامتك الخلقية ونأيك عن العبث والمغامرات وصمودك في وجه الإغراءات، والتزامك الديني وتفضيلك للحياة العائلية المستقرة بعيداً عن تجارب «الزواج والطلاق المتكررة» .. وأطالبك ببذل الجهد للإصلاح حرصاً على سعادة الأبناء وتحقيقاً لأهدافك في الحياة العائلية الفاضلة، وبخصوص الوقت الكافي لزوجتك وأبنائك وحياتك الأسرية، لأن النجاح العملي في الحياة بغير السعادة الشخصية والعائلية يفقد الكثير والكثير من جدواه وقيمته، وأطالبك كذلك بأن تنظر إلى حياتك وما حققته فيها نظرة شاملة، لترضى عن كفاحك وبرك بوالديك وأخوتك، وتوفيقك في الحياة العملية .. وسعادتك بأبنائك .. وخلو حياتك من المآسي الإنسانية والمرضية والاختبارات المؤلمة .. والحمد لله .. بل وأيضاً إلى اعترافك لزوجتك، بفضائلها الأخرى كتدينها وحرصها على أبنائها وواجباتها تجاه أسرتك .. وحبذا لو أسعدت بشفيقتك، وهي صديقتها القديمة .. على حظها على تفاني أسباب الشكوى والكدر حياتك معها، فتكشف لك النظرة الشاملة عن كثير مما ترضى عنه وينبغي لك شكر خالقك عليه .. وتتجاوز عن بعض النواقص التي لا تخلو منها حياة، لأن لكل إنسان من حياته ما يرضيه ويسعده وما يشقيه ويشكو منه في كل الأزمان، ولا تكتمل اللوحة أبداً لأحد من بني البشر من كل الجوانب والتفاصيل الصغيرة .. وإنما لابد دائماً من بعض النواقص فارض عن توفيقك في الحياة العملية، واجتهد من جانبك في محاولة تجنب أسباب الخلاف معها، وتفادي استثارة حساسياتها القديمة بعدم التركيز في حديث معها على الجانب المادي من الحياة أو عن عطاياك لها لكيلا تسيء هي فهم ذلك وتعتبره منا عليها .. وقد لا يكون القصد من حديثك سوى تذكيرها بما أنعم الله عليكما به لكيلا تغفل عنه وإقناعها باعتزازك بها وليس المن عليها .. وهي على أية حال تعتبر نفسها «شريكاً مؤسساً» لك فيما حققت من نجاح .. لكنها ربما لعارض نفسي أو بيولوجي عابر يتعلق بأزمة منتصف العمر لدى المرأة تغفل فقط عن بعض ما لا ينبغي لامرأة ذات فطنة أن تغفل عنه في مثل ظروفها .. وظروفك .